وإذا سألك عبادى عنى

فانى قريب ...

للأستاذ محمود حلمى

قال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » . (البقرة ١٨٦)

سبحانك ربى أتيت بآية تخص الدعاء وسط آيات الصوم لندرك أن هناك علاقة كبيرة بين الصوم والدعاء، وهذه العلاقة يفسرها قوله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث حق على الله ألا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع » .

فالصائم إذاً مستجاب الدعوة لأن أسباب الاستجابة توفرت لديه . إنه ترك طعامه وشرابه وفحشه فى النهار ، وقضى نهاره يسبحك ويكبرك ويعظمك فإذا جاء الليل أفطر وقام يصلى التراويح ، ويسجد لجلالك . فهو مهيأ بما شرعت له فى رمضان لأن يتصل بك ، وكيف يتصل بك إلا عن طريق فى قلبه الذى هو موضع نظرك . لقد صفا قلبه واستعد لأن تتجلى عليه برحمتك يا أرحم الراحمين ، فليكن إذاً لسانه ترجمان قلبه ، وليسألك فإنك أقرب إليه من حبل الوريد .

هذه هى المناسبة بين الدعاء والصوم ولذلك جاءت آية الدعاء بين آيات الصوم .

« وإذا سألك عبادى عنى » جاء فى أسباب النزول أن المسلمين قالوا يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله الآية .

هذا سبب نزولها ولكنها عامة شاملة للجميع .

أنظر إلى روعة الخطاب من رب العالمين إلى رسوله صلى الله عليه وسلم « فإنى قريب » القرب حقيقة

فى القرب المكانى المنزه عنه تعالى ، فهو استعارة لعلمه تعالى بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على سائر أحوالهم

« أجيب دعوة الداع إذا دعان »

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول : عبدى إنى أمرتك أن تدعونى ، ووعدتك أن أستجيب لك ، فهل كنت تدعونى ؟ فيقول نعم يارب ، فيقول أما إنك لم تدعنى بدعوة إلا استجبت لك أليس دعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟ فيقول نعم يارب ، فيقول إنى عجلتها لك فى الدنيا ودعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجاً ، قال نعم يارب ، فيقول إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا ، ودعوتنى فى حاجة أقضيها لك فى يوم كذا وكذا فتضيتها ؟ فيقول نعم يارب ، فيقول إنى عجلتها لك فى الدنيا ، ودعوتنى يوم كذا وكذا فى حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها ؟ فيقول نعم يارب ، فيقول إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له إما أن يكون عجل له فى الدنيا وإما أن يكون ادخر له فى الآخرة ، قال فيقول المؤمن فى ذلك المقام ياليته لم يكن عجل له شيء من دعائه (الحاكم)

وكذلك بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرار إجابة الدعاء

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا إذا نكثر قال الله أكثر .

(أحمد وغيره)

يفهم من ذلك أن الله يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، وأنه سبحانه يجعل الإجابة كيف يشاء ، إما يعجلها ، وإما يؤجلها ، وإما يمنحه عوضاً عنها

« فليستجيبوا لى » أى فليستجيبوا لى فيما أمرتهم به ومانهيتهم عنه ، أى فليطيعونى ، ومتى أطاعونى كانوا ربانيين إذا دعانى أحدهم أجبته ، وإذا سأل أعطيته .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.
(الترمذى)

فلا بد أن يصدر دعاؤك من قلب مؤمن بالله موقن أن الله يستجيب هذا الدعاء وإلا فلا إجابة ولا استجابة

وهذه اليقظة القلبية ، وهذا اليقين بالله الذى هو شرط إجابة الدعاء ، لا يتأتى لك إلا بطاعتك له ، إلا بالاستجابة لله فيما أمر وفيما نهى.

« وليؤمنوا بى » ولا يمكنك أن تستجيب لله إلا إذا آمنت به سبحانه وداومت على هذا الإيمان ، لأنك إذا لم تؤمن به لم تطع له أمراً .

والإيمان بالله هو التصديق بذاته وصفاته .

أما التصديق بالذات فهو التصديق بوجوده سبحانه .

وأما التصديق بالصفات فهو التصديق بها كلها ، بأنه سميع يسمع الدعاء ، مجيب يجيب الدعاء ، قدير يقدر على ما يشاء ، عليم يعلم إن كنت صادقاً فى دعائك أم كاذبا ، رحيم ورحمته تسع كل شيء . . . وهكذا فمتى كنت مؤمناً بذاته وصفاته أيقنت أنه يقدر أن يمنحك ما يشاء ، وأنه يسمع دعواتك هذه . حينئذ يصدر عنك الدعاء خالصاً إليه سبحانه .

فطريق الاستجابة هو الإيمان بالله فما ثمرة الإيمان والاستجابة إذاً ؟ هو الرشاد .

« لعلهم يرشدون » أى لعلهم باستجابتهم لى وإيمانهم بى يصيروا من الراشدين أى من الذين علموا الخير فاتبعوه ، وعلموا الشر فاجتنبوه . والرشاد بينه الله تعالى فى قوله : « ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . »

فالرجل الراشد هو الرجل الذى يحب الإيمان ويكره الكفر والفسوق والعصيان .

وهذه الحاسة لا تتكون فى قلب إنسان إلا بفضل الله ، لأنه هو الذى يحبب إليك الإيمان ويزينه فى قلبك ، وهو الذى يكره إليك الكفر والفسوق والعصيان .

ولذلك قال (لعلهم يرشدون) أى أن الرشاد ليس مبنيا على الاستجابة والإيمان ، وإنما هو فضل أمنّ به على من أشاء من عبادى ، وإنما جعلت الطاعة والإيمان سبباً له كما أن استجابة الدعاء ليست شرطاً علىّ ، وإنما أنا الفعال لما أريد ، أجيب

من أشاء ، وأرفض من أشاء ، لأن هذا هو اللائق بجلالى ، وهو اللائق بعظمتى ، ولكن ليثق كل مؤمن بى ، أنى حيى كريم أستحى أن يرفع عبدى إلىّ يديه وأردهما خائبتين .

الدعاء يتلخص فى الآتى :

١ — العبد يدعو وهو مستجيب لله مؤمن به .

٢ — الله يجيب الدعاء إذا استوفى العبد شروطه وهى الطاعة والإيمان

٣ — الدعاء يجاب بإحدى ثلاث إما تعجيله ، وإما تأخيره إلى الآخرة ، وإما استبداله فى الدنيا بخير آخر .

٤ — الدعاء لايجاب إذا صدر عن قلب غافل لاه .

أما إجابة دعوة المظلوم ولو كان كافراً فلأن الكافر إذا التجأ إلى الله كان فى حالة التجائه هذه مستجيباً لله مؤمناً به . لأن معنى التجائه إلى الله إيمانه ، ومعنى مناداته له وحده دون سواه استجابته لربه .

فالكافر المظلوم فى حالة دعائه لله يكون فى حالة إيمان واستجابة مؤقتة ؛ وهذا هو سر استجابة دعائه .

٥ — لله بعد ذلك كله مطلق الحرية كما قال سبحانه « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ،فإن شاء رفع الدعاء إليه ، وإن شاء لم يرفعه . فلا إيجاب على الله فى شئ وإنما الإيجاب على العباد . فان قبل دعاء المؤمنين فانما قبله تفضلا لاإيجاباً وإن رده فإنما يرده عدلا .

٦ — من علم أن له رباً يجب الدعاء فعليه أن يطمع فى رحمته .ويكثر من الدعاء ، فهو لاشك مصيبه من رحمته ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة وهذا هو سر استجباب الإكثار من الدعاء والنهى عن الملل منه ، كما قال صلى الله عليه وسلم « يستجاب لأحدكم مالم يعجل يقول دعوت فلم يستجب »

وفى الحقيقة أن الدعاء هو مخ العبادة حقاً .

ذلك أن الدعاء الصادق الخالص إنما يصدر عن قلب الشخص ، بينما العبادة تصدر عن جوارح الإنسان .

فالدعاء هو خضوع القلب لله :

وهو مستجاب ما كان عن إخلاص واتجاه الى لله .

وهو ألزم مايكون للصائم لأن الصائم فى حالة استعداد طبيعى لأن يتصل بالله.

وهكذا ينقلنا القرآن بهذه الآية الكريمة من جو الصيام وأحكامه إلى جو الدعاء وأحكامه ، ليعلمنا أن الصيام من الحالات الموجبة للإجابة .

وعلى هذا ينبغى لكل صائم وصائمة أن يتجه دائما إلى الله , وأن يدعو دائما ، ويرجو دائما ،إنه قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه .